المملكة العربية السعودية
وزارة الحج والأوقاف

التفسير البسيط للقرآن الكريم

بقلم
د. حسن محمد باجودة

الجزء الحادي عشر

الطبعة الأولى

منشورات الأمانة العامة لمسابقة القرآن الكريم الدولية

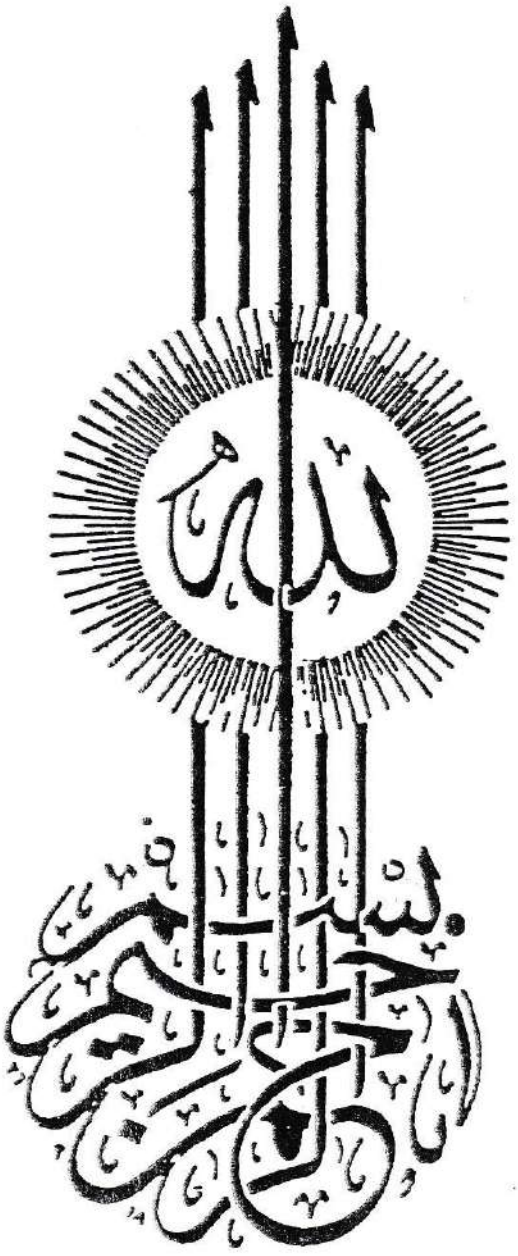
الله
بسم الله الرحمن الرحيم

المقدّمـــة

بسم الله الرّحمن الرّحيم

الحمد لله رب العالمين والصّلاة والسّلام على أشرف المرسلين سيّدنا محمّد وعلى آله وصحبه أجمعين وبعد :

فهذا تفسير مبسّط للجزء الحادي عشر من القرآن الكريم ، يكمل به تفسير سورة التّوبة ويغطّي سورة يونس وخمس آيات كريمات من سورة هود . وقد قمت بعمله على غرار تفسير الأجزاء العشرة السّابقة ، التي طبعتها وزارة الحج والأوقاف مشكورة ، تلبية لرغبة كريمة للّجنة العليا المنظّمة للاحتفال السّنويّ العالميّ لتلاوة القرآن الكريم وتجويده وتفسيره ، برئاسة معالي وزير الحجّ والأوقاف ، الأستاذ عبد الوهاب أحمد عبد الواسع . إنّ هذا الجزء الحادي عشر هو ميدان التفسير للمتسابقين في الحقل الأوّل ، الذي يشمل حفظ القرآن الكريم كاملاً مع التّفسير ، من بين الحقول الخمسة للمسابقة ، في الاحتفال السّنويّ الرّابع عشر ، المنعقد في أثناء الفترة من ٧/٢١ إلى ١٤١٢/٨/٢هـ . الموافق ١/٢٥ إلى ١٩٩٢/٢/٥م ، وكأنّ هذا التّفسير تتويج للأعمال التي تمّت في مجال التّفسير ، في أثناء الاحتفال الرابع عشر ، علماً بأنّ ميدان المتسابقين في الاحتفال الخامس عشر عام ١٤١٣هـ إن شاء الله تعالى ، هو الجزء الثّاني عشر من القرآن الكريم .

وأنتهز هذه الفرصة المباركة كي أوجّه خالص شكري وتقديري لوزارة الحجّ والأوقاف ، وعلى رأسها معالي الوزير ، على الثّقة التي منحتني إيّاها ، بأن أقوم بعمل هذا التّفسير ، الذي حرصت فيه ، كما حرصت في سابقيه ، على أمور أهمّها ثلاثة :

١ ــ أن أبيّن مظاهر التّرابط بين الآيات الكريمات والموضوعات .

٢ ــ أن أشير إلى الدّروس التي يمكن أن تستفاد .

٣ ــ أن أنسب الأقوال كلها إلى مصادرها .

وفي الختام أسأل الله تعالى أن يجعل هذا العمل خالصاً لوجهه الكريم ، إنّه سميع مجيب .

﴿ ربّنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا . ربّنا ولا تَحْمِلْ علينا إصراً كما حملته على الذين من قبلنا . ربّنا ولا تحمِّلنا ما لا طاقة لنا به . واعف عنا واغفر لنا وارحمنا . أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين ﴾ .

﴿ سبحان ربّك ربّ العزّةِ عمّا يصفون . وسلامٌ على المرسلين . والحمد لله ربّ العالمين ﴾ .

وصلّى الله وسلّم على سيّدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين . والحمد لله ربّ العالمين .

مكة المكرمة
يوم السبت ١٩/١٢/١٤١٢هـ
الموافق ٢٠/ ٦ /١٩٩٢م

كتبه الفقير إلى عفو ربّه
د. حسن محمد باجودة
أستاذ الدّراسات القرآنيّة البيانيّة
جامعة أم القرى بمكة المكرمة

أوّلاً

تمام سورة التّوبة

۞ يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ ۚ قُل لَّا تَعْتَذِرُوا
لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ ۚ وَسَيَرَى
اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ
وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٤﴾ سَيَحْلِفُونَ
بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ ۖ فَأَعْرِضُوا
عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ ۖ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءً بِمَا كَانُوا
يَكْسِبُونَ ﴿٩٥﴾ يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ ۖ فَإِن
تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ
﴿٩٦﴾ الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا
حُدُودَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٩٧﴾ وَمِنَ
الْأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ الدَّوَائِرَ ۚ
عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ ۗ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٩٨﴾ وَمِنَ
الْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَتَّخِذُ
مَا يُنفِقُ قُرُبَاتٍ عِندَ اللَّهِ وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ ۚ أَلَا إِنَّهَا قُرْبَةٌ
لَّهُمْ ۚ سَيُدْخِلُهُمُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩٩﴾

وَالسَّٰبِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَٰجِرِينَ وَالْأَنصَارِ وَالَّذِينَ
اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ
لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا
ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٠٠﴾ وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ الْأَعْرَابِ
مُنَٰفِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ
نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ
عَظِيمٍ ﴿١٠١﴾ وَءَاخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَٰلِحًا
وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠٢﴾
خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ
إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٣﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوٓا
أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَٰتِ وَأَنَّ
اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾ وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ
وَرَسُولُهُۥ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَٰدَةِ
فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٠٥﴾ وَءَاخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ
اللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٠٦﴾

وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًۢا بَيْنَ
ٱلْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ مِن قَبْلُ ۚ
وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّا ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ
﴿١٠٧﴾ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا ۚ لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ
يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ ۚ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا۟ ۚ
وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ ﴿١٠٨﴾ أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَٰنَهُۥ
عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَٰنَهُۥ
عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَٱنْهَارَ بِهِۦ فِى نَارِ جَهَنَّمَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى
ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٩﴾ لَا يَزَالُ بُنْيَٰنُهُمُ ٱلَّذِى بَنَوْا۟ رِيبَةً
فِى قُلُوبِهِمْ إِلَّآ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١١٠﴾
۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم
بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ
وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ
وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ فَٱسْتَبْشِرُوا۟
بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١١﴾

ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلْعَٰبِدُونَ ٱلْحَٰمِدُونَ ٱلسَّٰٓئِحُونَ
ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ ٱلْءَامِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ
وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱلْحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ ۗ
وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن
يَسْتَغْفِرُوا۟ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓا۟ أُو۟لِى قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ
مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿١١٣﴾ وَمَا كَانَ
ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ
فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ ۚ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ
﴿١١٤﴾ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًۢا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ حَتَّىٰ
يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾ إِنَّ ٱللَّهَ
لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۚ وَمَا لَكُم مِّن
دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١١٦﴾ لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى
ٱلنَّبِىِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِى
سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ
مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٧﴾

وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ
بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓا۟ أَن لَّا مَلْجَأَ
مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ
ٱلرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ
ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١١٩﴾ مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم
مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا۟ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا۟ بِأَنفُسِهِمْ
عَن نَّفْسِهِۦ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ
وَلَا مَخْمَصَةٌ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ
ٱلْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم
بِهِۦ عَمَلٌ صَٰلِحٌ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢٠﴾
وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ
وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا۟
يَعْمَلُونَ ﴿١٢١﴾ ۞ وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا۟ كَآفَّةً ۚ
فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ
وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴿١٢٢﴾

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ
وَلْيَجِدُواْ فِيكُمْ غِلْظَةً ۚ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٣﴾
وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ
إِيمَٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ
﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا
إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٢٥﴾ أَوَلَا يَرَوْنَ
أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِى كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ
لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾ وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ
سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ هَلْ يَرَىٰكُم مِّنْ أَحَدٍ
ثُمَّ ٱنصَرَفُواْ ۚ صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ
﴿١٢٧﴾ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ
عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ
رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ
إِلَّا هُوَ ۖ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ۖ وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١٢٩﴾

بين يدي التّفسير

((يحلف المنافقون المتخلّفون عن الجهاد ليرضى عنهم المؤمنون ولن يرضى الله تعالى عنهم ولا المؤمنون))
الآيات (٩٣ ــ ٩٦)

نفت الآيتان الأخيرتان من الجزء السابق الحرج والإثم عن أربع فئات حبسها العذر عن المشاركة في غزوة تبوك . ويبدأ هذا الجزء بحصر المؤاخذة في الذين يستأذنون المصطفى ﷺ في القعود وهم أغنياء قادرون على الجهاد في سبيل الله تعالى بالنّفس وبالمال ، والذين رضوا بالقعود مع النّساء المتخلّفات بالضّرورة عن الجهاد ، فطبع الله تعالى على قلوبهم فلا نفاق يخرج ، ولا نور هداية يدخل ، فهم لا يعلمون ما يجب عليهم وما ينتظرهم من عذاب أليم . وفي مجال الإنباء بالغيب يبيّن السّياق أن أولئك المنافقين سيعتذرون إلى المؤمنين إذا رجعوا من الجهاد فعلى المصطفى ﷺ أن يقول لهم : لا تعتذروا فنحن لا نصدّقكم لأنّ الله تعالى قد نبّأنا من أخباركم وسيرى الله تعالى عملكم ورسوله ﷺ ثم تُرَدُّون حتما إلى الله تعالى عالم الغيب والشهادة فينبّئكم بما كنتم تعملون في دنياكم . وإذا رجع المؤمنون من الجهاد سيحلف أولئك المنافقون لهم بأنهم تأخّروا بسبب قاهر الأعذار كي يُعْرض المؤمنون عن لومهم فعلى المؤمنين أن يُعْرضوا عنهم تماماً ويهملوهم بالكليّة احتقاراً لهم لأنهم نَجَسٌ وقَذَر ، وبسبب فساد طويتهم وسوء أعمالهم مأواهم جهنّم وبئس المهاد . وإنّ المنافقين يحلفون بالله على صدق أقوالهم ليرضى عنهم المؤمنون ، ولن يرضى الله تعالى عن المنافقين ولو رضي عنهم المؤمنون وكيف يرضى المؤمنون عمّن غضب الله تعالى عليه .

((من صفات الأعراب الكافرين والمنافقين والمؤمنين))
الآيات (٩٧ ــ ٩٩)

من بين الذين تخلّفوا عن غزوة تبوك واعتذروا للمصطفى ﷺ وللمؤمنين الأعراب ، وفيهم كافرون ومنافقون ومؤمنون . وقد أشارت الآية الكريمة الأولى إلى كافري الأعراب ومنافقيهم ووصفت كافريهم بأنهم أَوْلى بهم ألا يعلموا حدود ما أنزل الله تعالى العليم الحكيم على رسوله ﷺ من وحي ، بسبب غلظ طباعهم ، وبعدهم عن مخالطة أهل البرّ ، ومعايشة أهل الخير . والآية الكريمة الثانية تشير إلى منافقي الأعراب الذين يعتبرون ما ينفقون في سبيل الله تعالى غرامةً واقعةً عليهم ، وخسارةً حالّة بهم ، ويتربّصون بالمؤمنين الدّوائر ، ويتمنّون لهم المصائب . وفي مقابل سوء نيّتهم تجاه المؤمنين يجعل الله تعالى دائرة السَّوْء عائدةً إلى منافقي

الأعراب ومرتدَّةً عليهم . إن الله سبحانه وتعالى سميع لكلّ قول ، عليم بكلّ نيّة وفعل . والآية الكريمة الثّالثة تبيّن نعوت مؤمني الأعراب وثوابهم . إنهم يؤمنون بالله تعالى ، وباليوم الآخر ، ويتّخذون ما ينفقون في سبيل الله تعالى قربات عند الله تعالى ورفيع درجات ، كما يتّخذونه سبباً للفوز بدعاء المصطفى ﷺ لهم . إنّ الله سبحانه وتعالى الغفور الرّحيم سيجعل ما ينفقون قربةً لهم عنده عزّ وجلّ وسيدخلهم جلّ وعلا في رحمته بسبب سلامة قلوبهم ، وصفاء سرائرهم ، وببركة دعاء الرسول ﷺ لهم .

« مهاجرون وأنصار سابقون . ومنافقون مردوا على النّفاق ومعترفون بذنوبهم ومؤخّرون عن التّوبة لأمر الله تعالى »

الآيات (١٠٠ ــ ١٠٦)

يتحدّث هذا القسم عن فئات مختلفة . إنّه يتحدّث أوّلاً عن السّابقين الأوّلين من المهاجرين والأنصار الذين اتّبعوهم بإحسان إلى يوم الدّين بأنّ الله سبحانه وتعالى رضي عنهم لصالح أعمالهم ورضوا عنه جلّ وعلا لجزيل ثوابه ، وأعدَّ لهم يوم يلقونه جنات تجري من تحتها أنواع الأنهار ابتداءً بأنهار الماء ، وهم خالدون فيها أبداً ، وذلك هو الفوز العظيم حقّاً . كما يتحدّث السّياق عمّن حول المدينة المنورة من الأعراب المنافقين ، بل عن المنافقين من أهل المدينة الذين لجّوا في النّفاق ومردوا عليه . إنّ المصطفى ﷺ لا يعلم منافقي المدينة فكيف بالمنافقين خارجها ، ولكن الله سبحانه وتعالى يعلمهم وسيعذّبهم في الحياة الأولى مرّتين اثنتين بالفضيحة وعذاب القبر ، أو بالقتل وعذاب القبر . ويوم القيامة لهم عذاب عظيم . وإذا كان من أهل المدينة منافقون لجّوا في النفاق ، فمن أهل المدينة كذلك آخرون اعترفوا بذنوبهم بالتخلّف عن الجهاد خلطوا عملاً صالحاً بالتّوبة النّصوح ، وآخر سيّئاً هو التخلّف عن الجهاد . إن أولئك عسى الله تعالى الغفور الرّحيم أن يتوب عليهم ، وإنّ على المصطفى ﷺ أن يأخذ من أموالهم صدقة تطهّرهم من الذّنوب وترفع درجتهم ، وأن يدعو الله تعالى لهم ففي دعائه عليه الصلاة والسلام طمأنينة لهم ورحمة بهم . إن الله سبحانه وتعالى هو السّميع لكل دعاءٍ وقول ، العليم بكلّ نيّة وفعل . وبقصد تهييج صادقي التّوبة على استباق الخيرات يسأل السّياق : ألم يعلم أولئك التّائبون الصّادقو التّوبة أنّ الله سبحانه وتعالى هو يقبل التّوبة عن عباده المذنبين ، ويأخذ الصّدقات منهم ، كي يثيبهم عليها ، وأنّ الله تعالى هو التّوّاب الذي يرشد إلى التّوبة ، ويفرح بها ، ويقبلها ، وأنه هو جلّ وعلا الذي وسعت رحمته

كلّ شيء . أما وقد بيَّن السّياق هذه المعاني السّامية فإنه يأمر المصطفى ﷺ أن يقول لكلّ النّاس ، مؤمنهم وكافرهم ومنافقهم ، بأن يعملوا ما شاءوا فإنّهم مسئولون ، وسيرى الله سبحانه وتعالى عملهم ورسوله ﷺ والمؤمنون ، وسيردّون يوم القيامة إلى الله تعالى عالم الغيب والشّهادة فينبّئهم بما كانوا يعملون وسيجازيهم . ومن هؤلاء المتخلّفين عن الجهاد آخرون مؤخّرون عن التّوبة لأمر الله تعالى فإن شاء عذّبهم بعدله ، وإن شاء قبل توبتهم بفضله . إنه جلّ وعلا العليم الذي لا يخفى عليه شيء ، الحكيم في كلّ شيء .

« المسجد الذي أسّس على التّقوى من أوّل يوم أحقّ بالقيام فيه من مسجد الضّرار »
الآيات (١٠٧ ــ ١١٠)

يتحدّث هذا القسم عن مسجد الضّرار الذي اتّخذه المنافقون مضارَّةً لمسجد قباء وأهله ويقول : ومنهم الذين اتّخذوا مسجداً في الظّاهر ، مضارَّة لأهل قباء المؤمنين ومسجدهم في الحقيقة ، وكفراً بالله تعالى وتفريقاً بين المؤمنين بأن يصلّي بعضهم في مسجد قباء وبعضهم الآخر في مسجدهم الذي لا يفصله عن مسجد قباء سوء مجرى السّيل ، وترقّباً واستعداداً لمن حارب الله تعالى وحارب رسوله ﷺ من قبل ، وهو أبو عامر الذي لقبه النّبيّ ﷺ بالفاسق وكان يلقّب بالرّاهب . حينما أخفق أبو عامر في تحويل الأنصار عن الإسلام وفي التّخلص من المصطفى ﷺ اتّجه لقيصر الرّوم كي يمدّه بجيش يقاتل به محمداً ﷺ وطلب من اثني عشر منافقاً بناء مسجد الضّرار للصّلاة فيه ظاهراً ولإيواء المحتاجين ، أما في الباطن فلترقّب الفاسق كي يأتي إليه ويتّخذه نقطة انطلاق ضدّ المصطفى ﷺ ، ولتفريق كلمة المسلمين ، ولمضارّة أهل مسجد قباء ، وللتّعبير عن حقيقة كفرهم ونفاقهم والعياذ بالله . ويُنهى عليه الصّلاة والسّلام عن الصّلاة في مسجد الضّرار فأمر بحرقه وهدمه ، ويُرْشَد إلى الصّلاة في مسجد قباء ، المسجد الذي أُسّس على التّقوى من أوّل يوم وصل فيه المصطفى ﷺ إلى قباء مهاجراً ، والذي فيه رجال يحبّون أن يتطهّروا بالماء بعد قضاء الحاجة . إن الله تعالى يحبّ المتطهرين حسّاً وذلك بالاستنجاء بالماء ، ومعنًى وذلك بإقام الصّلاة جماعةً في المساجد ، وبخاصّة المساجد التي أُسّست من أوّل بنائها على التّقوى . وفي أسلوب الاستفهام يُنْكِر السّياق أن يكون من أسّس بنيانه على تقوى من الله تعالى ورضوان كمن أسّس بنيانه على حافّة جرفٍ هائرٍ مشرف على السّقوط فانهار بالبنيان في الهاوية وبأهله

في نار جهنّم . إنّه لا مجال للمقارنة بين البناءين ، ولا شكّ أنّ البناء الأوّل هو الخير كلّه ، وأنّ البناء الآخر هو الشرّ كلّه ، خاصّة إذا كان المنافقون الذين بنوا مسجد الضرار قد أُشْرِبَت قلوبهم حبّ مسجد الضرار وتمكّنت الرّيبة من تلك القلوب ولا تفارقها إلا بمفارقة الحياة لها . إنّ المنافقين عمي البصيرة الذين زادهم الله تعالى العليم الحكيم عمًى كيف يقارنون أصلاً بالمؤمنين المتّقين .

((الجنّة جزاء المجاهدين في سبيل الله تعالى وبعض صفات المؤمنين))
الآيات (١١١ ــ ١١٢)

تقرّر الآية الكريمة الأولى أن الله سبحانه وتعالى ابتاع من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بالجنّة التي عرضها السّماوات والأرض التي أعدّها الله تعالى للمتّقين . وفي الجمع بين النّفس والمال دليل على أهمّيّتهما في الجهاد في سبيل الله تعالى ، وفي تقديم النّفس على المال دليل على تقدّمها على المال في هذا المجال . وفي تقديم قتل المؤمنين أعداء الله تعالى تنبيه إلى إيجابيّة المجاهدين في سبيل الله تعالى ، وهي إيجابيّة يعزّزها استشهادهم في سبيل الله تعالى . وقد رتّبت الآية الكريمة كبار الكتب السماوية تأريخيّاً ، التّوراة والإنجيل والقرآن ، وقرّرت أنّ دخول الجنّة هو الفوز العظيم حقّاً . وتبيّن الآية الكريمة التّالية بعض صفات المؤمنين . ويصح أن يقال عن الصّفات الأربع الأُول بأنّها أقرب إلى العموم وهي التّوبة والعبادة والحمد والسّياحة ، كما يصحّ أن يقال عن الصّفات الأربع الأُخر بأنّها أقرب إلى الخصوص وهي الصّلاة التي عُبِّر عنها بالرّكوع والسّجود ، والأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر والحفظ لحدود الله تعالى . وقد ختمت الآية الكريمة بالقول : « وبشّر المؤمنين » والمعنى : وبشّر المؤمنين الذين تلك صفاتهم بالثّواب العظيم .

((ما ينبغي للنّبيّ والمؤمنين أن يستغفروا للمشركين أعداء الله تعالى العليم القدير))
الآيات (١١٣ ــ ١١٦)

تبيّن من آخر آيتي القسم السّابق أنّ أُولى صفات المؤمنين التّوبة من الذّنوب فإنّهم ليسوا معصومين ولا ملائكة . وكما تكون التّوبة من الشّخص يكون الاستغفار . ويصحّ الإستغفار للآخرين الذين يستحقّونه أمّا الذين لا يستحقّونه فلا يُسْتَغْفَر لهم . وحول معنى

الاستغفار تدور آيات هذا القسم. إن الآية الكريمة الأولى تبيّن أنه ما ينبغي للنّبيّ ﷺ والمؤمنين أن يستغفروا للمشركين من بعد ما تبيّن لهم أنّهم أصحاب الجحيم بسبب موتهم على الشّرك. وتقرّر الآية الكريمة الثّانية أن استغفار إبراهيم عليه السّلام لأبيه آزر المشرك ما كان إلّا بسبب موعدةٍ وعدها إبراهيم عليه السّلام أباه على نحو ما صرّحت به سورة مريم، فلمّا تبيّن له أنّه عدوّ لله تعالى بسبب موته على الشّرك تبرّأ منه إبراهيم عليه السّلام الكثير التّضرّع إلى الله تعالى الحليم الصّبور على الأذى. ويشير السّياق بعد ذلك إلى هداية الدّلالة والإرشاد بين يدي هداية التوفيق. إن من يصرّ على ذنبه فإنّ الله سبحانه وتعالى العليم بكلّ شيء سوف يزيده ضلالاً إلى ضلاله. إن لله تعالى ملك السّماوات والأرض وبيده ملكوت كلّ شيء فهو الذي يحيي ويميت وهو وحده القادر على كل شيء ووليّ المؤمنين أمّا الكافرون فلا مولى لهم.

((توبة الله تعالى على النّبيّ والمهاجرين والأنصار وعلى الثّلاثة الذين أُخّرت توبتهم))

الآيات (١١٧ ــ ١١٩)

تقرّر الآية الكريمة الأولى أنّ الله سبحانه وتعالى أدام توبته على النّبيّ والمهاجرين والأنصار الذين اتّبعوه عليه الصّلاة والسّلام في ساعة العسرة ووقت الشّدّة ورفع منزلتهم إلى درجة أرفع في غزوة تبوك التي كانت في شدّة الحرّ وقلّة الطّعام والماء، من بعد ما كاد يزيغ قلوب فريق منهم ويشكّ في دينه ويرتاب بسبب ما ناله في تلك الغزوة من الشّدّة والعذاب، ثمّ تاب عليهم بأن هدى هذا الفريق إلى التّوبة مما ألمّ به من هاجس الشّكّ والارتياب، وقبل جلّ وعلا توبتهم إنه عزّ وجلّ بهم رءوف رحيم. وتقرّر الآية الكريمة الثّانية أنّ الله سبحانه وتعالى تاب كذلك على الثّلاثة الذين أُخّرت توبتهم والذين صدقوا في أقوالهم بأنّهم لم يكن لهم عذر يمنعهم من الخروج إلى الغزوة، حتّى إذا ضاقت على هؤلاء الثّلاثة الأرض مع سعتها وضاقت عليهم أنفسهم فلا يقرّ لهم قرار ولا يهنأ لهم مضجع، وأيقنوا ألّا ملجأ من الله سبحانه وتعالى إلا إليه وصدقوا التّوبة التي أرشدهم جلّ وعلا إليها ووفّقهم لها تفضّل جلّ وعلا عليهم بقبولها إنّه جلّ وعلا هو التّواب الرّحيم. ولمّا كان الصّدق هو الذي أنجا بفضل الله تعالى الثّلاثة بسبب تقواهم فقد أمرت الآية الكريمة الثّالثة الذين آمنوا بأن يتّقوا الله تعالى وأن يكونوا مع الصّادقين.

« ثواب المجاهدين ، وعلى المؤمنين أن ينفروا للجهاد وللتفقّه في الدّين وأن يقاتلوا الكافرين الأقرب منهم مكاناً »
الآيات (١٢٠ ــ ١٢٣)

تتحدّث آيات هذا القسم عن غزوات المصطفى ﷺ وعن سراياه التي يبعث عليها قوّاده . إنّ النّبيّ ﷺ حينما يغزو بذاته الشّريفة ، على كلّ المسلمين أن يغزوا معه وليس من حقّ شخص واحد أن يتخلّف بغير عذر ، وإن السّريّة حينما تغزو لا يحقّ لأحد أن ينضمّ إليها إلا بإذنه ﷺ . إن الآية الكريمة الأولى تقرّر أنّه ما ينبغي لأهل المدينة ومن حولهم من الأعراب أن يتخلّفوا عن رسول الله ﷺ ولا يرغبوا بأنفسهم عن نفسه الشّريفة ، ولا يؤثروها على نفسه ﷺ التي احتملت الصّعاب وتعرّضت للمشاق . وترتّب الآية الكريمة خمسة من الأعمال التي يقوم بها المباشرون للجهاد في سبيل الله تعالى مرتّبة لها حسب وقوعها ، كما تشير الآية الكريمة الأخرى إلى عملين يقوم بهما المجاهدون المباشرون للقتال وغير المباشرين له مع تقديم أقربهما تناولاً وهو إنفاق المال وتأخير قطع الأودية . وكما ينفر في السّريّة بعض المؤمنين ينبغي أن ينفر للعلم بعض الباقين ليتفقّهوا في الدين ولينذروا قومهم إذا عادوا من السّريّة . وعلى المؤمنين أن يبدأوا بقتال الكافرين الأقرب منهم مكاناً فالأقرب وليجدوا في المؤمنين غلظةً تحملهم على ترك الشّرك واعتناق دين الإسلام .

« نزول السّوَر يزيد المؤمنين إيماناً ويزيد المنافقين نفاقاً وقلوبهم انصرافاً »
الآيات (١٢٤ ــ ١٢٧)

تتحدّث الآيات الكريمات عن المنافقين وعن عدم فطنتهم للحكمة من اختبار الله تعالى لهم . إن الآية الكريمة الأولى تقرّر أن سورة من سور القرآن إذا ما أُنزلت فإنّ من المنافقين من يسأل في استهزاء : « أيّكم زادته هذه إيماناً » وتجيب الآية الكريمة على السّؤال من زاوية المؤمنين الذين زادتهم السّورة الكريمة إيماناً ، وتجيب الآية الكريمة الثّانية من زاوية المنافقين الذين زادتهم السّورة الكريمة شكّاً إلى شكّهم . إلى أن ماتوا وهم كافرون . وتبيّن الآية الكريمة الثّالثة أن المنافقين لم يستفيدوا من ابتلاء الله تعالى لهم كلّ عام مرّة أو مرّتين . والآية الكريمة الرّابعة تشير إلى موقف المنافقين من السّور الكريمات التي تتحدّث عنهم . إن المنافقين ينظر بعضهم إلى بعض ويسأل بعضهم بعضاً : « هل يراكم من أحدٍ » ثم ينصرفون . إنّهم يستحقّون أن يزيد الله تعالى قلوبهم انصرافاً إلى انصرافها لأنّهم قوم لا يفقهون .

((الرّسول الكريم حريص على إيمان النّاس رءوف رحيم بالمؤمنين))

الآيتان (١٢٨ ، ١٢٩)

الآية الكريمة الأولى تقرّر أنّ الناس قد جاءهم جميعاً رسول من الله تعالى من أنفسهم ، أي من البشر ، وليس من غير جنسهم كالملائكة مثلاً . وهذا الرسول الكريم يعزّ عليه ما يسبّب المشقّة والعنت للنّاس بسبب كفرهم ، وهو حريص على إيمانهم ، وهو بالمؤمنين رءوف رحيم . والآية الكريمة الأخيرة في القِسْم وفي السّورة درس للدّعاة . إنّ على الدّعاة حينما يعرض عنهم النّاس أن يقولوا ما أمر الله تعالى رسوله ﷺ أن يقول : « حسبي الله لا إله إلا هو عليه توكّلت وهو ربّ العرش العظيم » .

التّفسـيـر

« يحلف المنافقون المتخلّفون عن الجهاد
ليرضى عنهم المؤمنون ولن
يرضى الله تعالى عنهم ولا المؤمنون »
الآيات (٩٣ ــ ٩٦)

إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَآءُ رَضُوا۟ بِأَن يَكُونُوا۟ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٩٣﴾

نفت الآيتان الكريمتان الأخيرتان من الجزء السابق العاشر أن يكون ثمة شيء من حَرَجٍ أو إثم على أربع فئات تخلّفت عن الجهاد في سبيل الله تعالى بسبب أعذار قاهرة . وهذه الفئات الأربع هي الضّعفاء بعامة ، والمرضى ، والذين لا يجدون ما ينفقون من مال في سبيل الوصول إليك أيها الرسول الكريم لتحملهم إلى ميدان المعركة أو الوصول إلى ميدان المعركة رأساً ، والذين أتوا النبي ﷺ من أماكنهم البعيدة كي ينضمّوا إلى الجيش الإسلامي فأخبرهم المصطفى ﷺ أنه ليس لديه عليه الصلاة والسلام الظهر الذي يحملهم عليه فانصرفوا وقد فاضت أعينهم من الدمع بعد أن امتلأت به .

وإن أولى آيات الجزء الحادي عشر تقصر السبيل بالعقوبة[1] والطريق بالمؤاخذة على الذين يستأذنون المصطفى ﷺ للقعود عن الجهاد في سبيل الله تعالى وهم أغنياء قادرون على الجهاد في سبيل الله تعالى . وإنما استأذن هذا الفريق المصطفى ﷺ للقعود لأنّه رضي بأن يكون قاعداً مع النساء الخوالف المتأخّرات بالضّرورة المتخلّفات عن الرِّجال المرتحلين[2] جهاداً في سبيل الله تعالى .

وبسبب رضا هذا الفريق بالقعود عن الجهاد في سبيل الله تعالى ، ذلك القعود الذي لا يرضى عنه الله تعالى ولا رسوله ﷺ ، وبسبب انصراف قلوب أصحابه عن كل ما يُرْضي الله تعالى ورسوله ﷺ طبع الله تعالى على تلك القلوب وختم عليها فلا يخرج ما فيها من نفاق والعياذ بالله تعالى ولا يدخل فيها شيء من نور الهداية والتوفيق . ولما كانت تلك القلوب التي طبع الله تعالى عليها لا يتسلّل إليها شيء من نور الحق والهداية فذلك معناه أنها تعيش في ظلمات النّفاق والجهل ، ولهذا وصف هذا الفريق في نهاية الآية الكريمة بعدم العلم النافع أي بالجهل المطبق والعياذ بالله تعالى ، وبعدم العلم بسوء عاقبتهم بالتخلف عن الجهاد في سبيل الله تعالى .

---

(١) تفسير الطبري ٢/١١ .

(٢) انظر مفردات الراغب الأصفهاني : « خلف » ١٥٧ .

۞ يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ ۚ قُل لَّا تَعْتَذِرُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ ۚ وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٤﴾

لن نؤمن لكم : لن نصدقكم على ما تقولون[1] .

تقرر الآية الكريمة أن أولئك المنافقين المتخلفين عن الجهاد في سبيل الله تعالى سوف يعتذرون إليكم أيها المؤمنون إذا رجعتم إليهم من غزوة تبوك ومن الجهاد في سبيل الله تعالى . قل لهم أيها الرسول الكريم وقل لهم أيها المؤمن المجاهد في سبيل الله تعالى لا تعتذروا عن القعود مع النساء المتخلفات عن الرجال ، لن نؤمن لكم ولن نصدقكم فإن الله سبحانه وتعالى قد نبأنا من أخباركم وأعلمنا من أمركم ما قد علمنا به كذبكم[2] وسيرى الله سبحانه وتعالى عملكم مستقبلاً وسيراه رسوله ﷺ أتتوبون من نفاقكم أم تقيمون عليه[3] ثم تردون بعد الموت والبعث إلى عالم الغيب والسر ، الشهادة والعلانية ، فيخبركم بأعمالكم ويجازيكم عليها ، إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر .

سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ ۖ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ ۖ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٩٥﴾

إذا انقلبتم إليهم : إذا رجعتم[4] وانصرفتم إليهم من غزوكم[5] .

فأعرضوا عنهم : فدعوا تأنيبهم وخلّوهم وما اختاروا لأنفسهم من الكفر والنفاق[6] .

إنهم رجس : إنهم قذر لخبث باطنهم[7] ونَجَسٌ[8] وخَبَث[9] .

ومأواهم جهنم : ومصيرهم إلى جهنم وهي مسكنهم الذي يأوونه في الآخرة[10] .

---

(١) تفسير الطبري ٢/١١ وتفسير ابن كثير ٣٨٢/٢ .
(٢) تفسير الطبري ٢/١١ .
(٣) تفسير الطبري ٢/١١ .
(٤) الجلالين .
(٥) تفسير الطبري ٣/١١ .
(٦) تفسير الطبري ٣/١١ .
(٧) الجلالين وتفسير ابن كثير ٣٨٢/٢ .
(٨) تفسير الطبري ٣/١١ .
(٩) تفسير ابن كثير ٣٨٢/٢ .
(١٠) تفسير الطبري ٣/١١ .

تقرر الآية الكريمة في مجال الإنباء بالغيب بأن المنافقين الكاذبين سيحلفون بالله العظيم للمؤمنين إذا رجعوا إليهم من غزوة تبوك بأنهم صادقون في الأعذار التي ذكروا أنها السبب في قعودهم عن مرافقة المصطفى ﷺ والمؤمنين في غزوة تبوك ، من أجل أن يعرض عنهم المؤمنون بترك معاتبتهم على التخلف عن الجهاد في سبيل الله تعالى . وأعرض : أظهر عَرْضه ، أي ناحيته . والعَرْض خلاف الطّول ، وأصله أن يقال في الأجسام ثم يستعمل في غيرها كما قال : فذو دعاء عريض[1] .

وإذا كان المنافقون يريدون بحلفهم بالله العظيم أن يعرض المؤمنون عن معاتبتهم ويكفّوا عن تأنيبهم فإن رب العزة يأمر المؤمنين بأن يعرضوا عن المنافقين بالكلية وينصرفوا عنهم تماماً احتقاراً لهم[2] بسبب خبث باطنهم فإنهم نجس وقذر . وإن مصيرهم يوم القيامة جنهم ومأواهم النار جزاء بما كانوا يكسبون في الحياة الدنيا من الآثام والخطايا .

والآية الكريمة التالية تبين هدف المنافقين من إعراض المؤمنين عن مطاردتهم باللوم والتثريب .

يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ ۖ فَإِن تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴿٩٦﴾

تقرر الآية الكريمة أن أولئك المنافقين يحلفون بالله تعالى العظيم كاذبين ليرضى عنهم المؤمنون . وهل ينفع المنافقين رضا العباد إذا كانوا لا يرضى عنهم رب العباد ؟ لا بطبيعة الحال . إن العباد لهم الظاهر ، يقفون عنه ولا يستطيعون أن يتجاوزوه إلى علم الباطن . وإن باطن المنافقين فاسد بشهادة الآية الكريمة السابقة ، وهذا معناه أن المؤمنين لن يرضوا عن المنافقين . ولو فُرِض أن المؤمنين رضوا عن المنافقين فإن الله سبحانه وتعالى لن يرضى عنهم . وها هي ذي الآية الكريمة تعبّر عن المنافقين بالقوم الفاسقين الذين خرجوا عن الصراط المستقيم إلى مهاوي الردى . وإن لسان حال الآية الكريمة يقول : إن المؤمنين بقيادة المصطفى ﷺ لن يرضوا عن القوم الفاسقين المنافقين المغضوب عليهم من رب العالمين .

---

(١) مفردات الراغب الأصفهاني : « عرض » ٣٣٠ .

(٢) تفسير ابن كثير ٣٨٢/٢ .

« من صفات الأعراب الكافرين والمنافقين والمؤمنين »
الآيات (٩٧ ــ ٩٩)

﴿ ٱلْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا۟ حُدُودَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٩٧﴾ ﴾

الأعراب : الأعراب في الأصل جمع العرب وهم ولد إسماعيل . وصار ذلك اسماً لسكان البادية . وقيل في جمع الأعراب أعاريب . والأعرابي في التعارف صار اسماً للمنسوبين إلى سكان البادية . والعربي المُفْصِح . والإعراب البيان . يقال : أَعْرَبَ عن نفسه . وفي الحديث : الثّيّب تُعْرِب عن نفسها[1] .

وأَجْدر : وأخلق[2] وأحرى[3] وأولى[4] .

تقرر الآية الكريمة أن الأعراب سكان البوادي أشد من غيرهم كفراً ونفاقاً وأجدر ألا يعلموا حدود ما أنزل الله سبحانه وتعالى على رسوله ﷺ بسبب جفائهم وغلظ طباعهم وبعدهم عن سماع القرآن وعن الاختلاط بأهل البر والخير . إن الله سبحانه وتعالى عليم بخلقه وبحظوظهم من الجفاء والرقة ، حكيم في صنعه ومن ذلك قَسْمُ الحظوظ بين عباده ، ومن ذلك إرسال الله تعالى رسله وأنبياءه من أهل القرى بمعنى المدن وليس من أهل البوادي . قال تعالى[5] : ﴿ وما أرسلنا من قبلك إلا رجالاً نوحي إليهم من أهل القرى . أفلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم . ولدار الآخرة خير للذين اتّقَوْا أفلا تعقلون ﴾ ومن ذلك حِلْمُه جل وعلا عن عقابهم مع علمه بسرائرهم .

عن عائشة قالت : قدم ناس من الأعراب على رسول الله ﷺ فقالوا : أتقبّلون صبيانكم ؟ قالوا نعم . قالوا لكنا والله ما نقبّل . فقال رسول الله ﷺ : وأملك إن كان الله نزع منكم الرحمة . وفي رواية : من قلبك الرحمة[6] .

وجلس أعرابي إلى زيد بن صوحان وهو يحدث أصحابه وكانت يده قد أصيبت يوم نهاوند[7] فقال : والله إن حديثك ليعجبني وإن يدك لتريبني . فقال زيد : وما يريبك من

---

(١) مفردات الراغب الأصفهاني : « عرب » ٣٢٨ .
(٢) تفسير الطبري ١١/٤ .
(٣) تفسير ابن كثير ٢/٣٨٣ .
(٤) الجلالين .
(٥) سورة يوسف ١٠٩ .
(٦) تفسير ابن كثير ٢/٣٨٣ .
(٧) نهاوند بفتح النون الأولى وتُكسر والواو مفتوحة ونون ساكنة ودال مهملة . هي مدينة عظيمة في قبلة همذان بفارس بينهما ثلاثة أيام . وكانت وقعة نهاوند سنة إحدى وعشرين هجرية أيام عمر بن الخطاب رضي الله عنه . وأمير المسلمين النعمان بن مقرّن المزني الصحابي الذي استشهد في هذه الغزوة ، رضي الله عنه . معجم البلدان .

يدي . إنها الشِّمال . فقال الأعرابي : والله ما أدري أيمين يقطعون أم الشمال ! فقال زيد بن صوحان : صدق الله : الأعراب أشد كفراً ونفاقاً وأجدر ألا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله[1] .

وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ
ٱلدَّوَآئِرَ ۚ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٩٨﴾

مغرماً : غرامةً وخسارة[2] .

ويتربص بكم الدوائر : وينتظرون بكم الدوائر أن تدور بها الأيام والليالي إلى مكروه ونفي محبوب وغلبة عدو لكم[3] والتربص الانتظار بالشيء سلعة كانت يَقْصِد بها غلاء أو رِخصاً ، أو أمراً يُنْتَظَر زواله أو حصوله[4] .

عليهم دائرة السوء : عليهم دائرة السوء يقول : جعل الله دائرة السوء عليهم ونزل المكروه بهم لا عليكم أيها المؤمنون ولا بكم[5] والسوء بفتح السين مصدر من قولهم : سؤته سَوءاً ومساءةً ومسائيةً كقولهم : هو رجل السَوْء وامرؤ الصِّدق ، على وجه النعت ، والمعنى هنا : عليهم الدائرة التي تسوؤهم سوءاً[6] .

تتحدث الآية الكريمة عن منافقي الأعراب الذين يضطرون للإنفاق في سبيل الله تعالى فتقرر أن من الأعراب منافقين يتخذون ما ينفقون في سبيل الله تعالى من مال غرامة عليهم وخسارة لهم . ووراء ذلك هم يتربصون بالمؤمنين الدوائر ، وينتظرون لهم الآفات ، ويتمنون أن تدور المصائب وتلف الآفات ، وترجع إلى المؤمنين ، وتصيبهم ولا تخطئهم . وفي المقابل تقرر الآية الكريمة في مجال الإنباء بالغيب بأن دائرة السوء ستحل بالمنافقين وستنقلب عليهم وذلك في القول : « عليهم دائرة السوء » وذلك هو الذي كان . وفي التذييل : « والله سميع عليم » تقرر الآية الكريمة ، في صيغة المبالغة فعيل ، بأن الله سبحانه وتعالى هو السميع لكل قول ، العليم بكل نية وفعل ، المجازي على كل ذلك ، إن خيراً فخير وإن شراً فشر .

---

(١) تفسير الطبري ٤/١١ وتفسير ابن كثير ٣٨٣/٢ .
(٢) تفسير ابن كثير ٣٨٣/٢ .
(٣) تفسير الطبري ٤/١١ .
(٤) مفردات الراغب الأصفهاني : « ربص » ١٨٥ .
(٥) تفسير الطبري ٤/١١ .
(٦) انظر تفسير الطبري ٤/١١ ، ٥ .

وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَٰتٍ عِندَ ٱللَّهِ وَصَلَوَٰتِ ٱلرَّسُولِ ۚ أَلَآ إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْ ۚ سَيُدْخِلُهُمُ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩٩﴾

قربات عند الله : القربات جمع قربة ، وهو ما قرّبه من رضا الله ومحبته[1] والقربة بمعنى الحُظوة[2] .

وصلوات الرسول : دعاء الرسول واستغفاره له[3] .

تشير الآية الكريمة إلى الفريق الثالث من الأعراب وهو الفريق المؤمن بعد أن أشارت الآيتان السابقتان إلى الكافرين والمنافقين من الأعراب على التوالي . إن الآية الكريمة تقرر أن من الأعراب من يؤمن بالله تعالى رباً ، وبالإسلام ديناً ، وبمحمد ﷺ رسولاً ، وبالقرآن الكريم شرعةً ومنهاجاً ، ومن يؤمن باليوم الآخر يوم يقوم الناس من قبورهم لله رب العالمين فيحاسبهم ، يثيبهم بفضله ، أو يعاقبهم بعدله . وهؤلاء المؤمنون من الأعراب بالله واليوم الآخر يتخذون ما ينفقون من أموال في سبيل الله تعالى قربات عند الله تعالى ورفيع درجات عندهُ جل وعلا وصلوات الرّسول ﷺ بالدّعاء والاستغفار لهم . إن الآية الكريمة تقرر أن الأموال التي أنفقها المؤمنون من الأعراب الصادقو الإيمان بقصد اتخاذها قربات عند الله تعالى ستكون بفضل من الله تعالى ورحمة قربة لهم عند الله تعالى ورفيع درجة . كما تقرر أن الله سبحانه وتعالى سيدخل صادقي الإيمان من الأعراب في رحمته جل وعلا . إنه جل وعلا هو الغفور لذنوب عباده الرحيم بهم إذ أرشدهم إلى ما فيه صلاحهم وفلاحهم .

ولما كان اتخاذ الصادقين من الأعراب ما ينفقون قربات عند الله تعالى من ناحية ، وصلوات الرسول ﷺ من ناحية أخرى ، فإنه يصح ، والله تعالى أعلم ، أن يكون قد ترتب على كل من القصدين أو النيتين ثمرة يانعة ونتيجة حسنة . أما ثمرة القربة عند الله تعالى فقد تحققت بفضل الله تعالى في القول : « ألا إنها قربة لهم » وأما ثمرة الصلوات من الرسول ﷺ فقد تحققت برحمة الله تعالى في القول : « سيدخلهم الله في رحمته » .

وإذا كانت الرحمة في القول : « سيدخلهم الله في رحمته » قد رشّحت لمجيء الرحمة في

---

(١) تفسير الطبري ١١/٥ .

(٢) مفردات الراغب الأصفهاني : « قرب » ٣٩٩ .

(٣) تفسير الطبري ١١/٥ .

التذييل : « إن الله غفور رحيم » فإن القربة عند الله تعالى للأعراب بمعنى الدرجة العالية والمنزلة الرفيعة قد سبقها بفضل الله تعالى غفران الله تعالى للذنوب وستره جل وعلا للعيوب . والدليل على ذلك أن الرحمة إذا جاءت في الذكر متأخرة عن القربة وفي التذييل كذلك ، فإن غفران الله تعالى للذنوب جاء متقدماً في التذييل . وهكذا تتناغم الصفتان في التذييل مع حبات المعاني في الآية الكريمة . ولا ننسى أن معاني الآية الكريمة ثنائية التركيب غالباً ، فالأعراب يؤمنون بالله تعالى ويؤمنون باليوم الآخر . والأعراب يتخذون ما ينفقون قربات عند الله تعالى ويتخذونه دعوات لهم من الرسول ﷺ . وبناء على هذه المعاني الأربعة الثنائية التركيب تأتي أربعة معان ، الاثنان الأخيران منها ثنائيًا التركيب . فالنفقات قربة لهم عند الله تعالى ، ودعوات الرسول ﷺ سبب رحمة الله تعالى بهم . والله سبحانه وتعالى هو الغفور لذنوب العباد ، الرحيم بهم .

« مهاجرون وأنصار سابقون . ومنافقون
مردوا على النّفاق ومعترفون بذنوبهم ،
ومؤخّرون عن التّوبة لأمر الله تعالى »
الآيات (١٠٠ ــ ١٠٦)

وَالسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٠٠﴾

تتحدث الآية الكريمة عن السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين وعن ثوابهم الجزيل وفوزهم العظيم . ويلاحظ أن الآية الكريمة تصف هؤلاء المهاجرين والأنصار بأنّهم السّابقون وبأنّهم الأوّلون . وإذا كان المهاجرون هم المؤمنين الذين هاجروا من مكة إلى المدينة وفروا بدينهم بسبب بطش كفار قريش بهم ، علماً بأن الهجرة إلى المدينة سبقتها هجرتان إلى الحبشة ، وإذا كان الأنصار هم المؤمنين من سكان المدينة المنورة من الأوس والخزرج الذين رحبوا بإخوانهم المهاجرين ونصروا الله ورسوله ، فإنّا بحاجة إلى أن نعرف معنى السابقين والأولين .

ومن البين ارتباط معنى السابقين والأولين بالزمن في المقام الأول . فهؤلاء المهاجرون والأنصار سبقوا غيرهم من المهاجرين والأنصار إلى الهجرة من بلد الكفر وهي مكة آنذاك إلى بلد الإيمان ، وهي المدينة ، وإلى نُصرة الله تعالى ونصرة رسوله ﷺ . وقد ذهب فريق من العلماء إلى أن السابقين هم الذين بايعوا رسول الله ﷺ بيعة الرضوان وأدركوها عام الحديبية[1] وصلح الحديبية كان في ذي القعدة سنة ست من الهجرة[2] كما ذهب فريق آخر من العلماء إلى أن السابقين من المهاجرين والأنصار هم الذين صلوا القبلتين مع رسول الله ﷺ[3] وقد كان تحويل القبلة من صخرة بيت المقدس في القدس الشريف إلى الكعبة المشرفة في مكة المكرمة بعد مضي ستة عشر أو سبعة عشر شهراً من هجرة المصطفى ﷺ من مكة المكرمة إلى المدينة المنورة[4] .

وإن فضل الله تعالى الذي ليس له حدود ، ورحمته جل وعلا التي وسعت كل شيء شملا التابعين بإحسان كلًّا من المهاجرين في سبيل الله تعالى إلى يوم الدين والفارين بدينهم من

---

(١) انظر تفسير الطبري ٦/١١ وتفسير ابن كثير ٣٨٣/٢ .

(٢) انظر مثلاً السيرة النبوية لابن هشام ٣٢١/٣ حلبي تصوير بيروت .

(٣) تفسير الطبري ٦/١١ .

(٤) انظر مثلاً تفسير ابن كثير ١٩٣/١ .

بلاد الكفر إلى بلاد الإيمان ، ومن الأنصار الذين نصروا الله تعالى ونصروا رسوله ﷺ بالسيف والسنان واللسان والجَنان .

إنّ الآية الكريمة تقرّر أنّ الله سبحانه وتعالى قد رضي عن المهاجرين والأنصار والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين ورضوا عنه بما خصهم به جل وعلا من جزيل الثواب ، وقد أعد الله سبحانه وتعالى لهم جميعاً جنات تجري تحت شجرها وقصورها الأنواع المختلفة من الأنهار ، ابتداء بأنهار الماء . وهم خالدون في تلك الجنات أبداً . وإن ذلك هو الفوز العظيم حقاً ، والنجاح الكبير صدقاً .

وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ مُنَٰفِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ مَرَدُوا۟ عَلَى ٱلنِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ ۖ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ ۚ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ ﴿١٠١﴾

مردوا على النفاق : لجّوا فيه واستمروا(١) ومرنوا(٢) عليه ودربوا به(٣) ومنه شيطان مارد ومريد وهو الخبيث العاتي . ومنه قيل : تمرّد فلان على ربه أي عتا ومرد على معصيته واعتادها(٤) والمارد والمريد من شياطين الجن والإنس المتعرّى من الخيرات ، من قولهم : شجر أمرد إذا تعرى من الورق ، ومنه قيل : رملة مرداء لم تُنبت شيئاً ، ومنه الأمرد لتجرده من الشَّعَر(٥).

تخاطب الآية الكريمة أهل المدينة المنورة وتقول لهم : وممن حولكم يا أهل المدينة منافقون من الأعراب . قال الكلبي : نزلت في جهينة ومزينة وأشجع وأسلم وغِفار(٦) وكما يوجد حول المدينة المنورة منافقون من العرب يوجد منافقون من أهل المدينة . بل إن منافقي أهل المدينة قد مردوا على النفاق ومرنوا عليه ، ولجّوا فيه وأبوا غيره(٧) .

وتخاطب الآية الكريمة المصطفى ﷺ وتقول له : أنت أيها الرسول الكريم لا تعلم أولئك المنافقين من أهل المدينة ، ومن باب الأحرى ألّا يعلم المصطفى ﷺ المنافقين مِنْ

---

(١) الجلالين .
(٢) تفسير ابن كثير ٣٨٤/٢ .
(٣) تفسير الطبري ٨/١١ .
(٤) تفسير الطبري ٨/١١ .
(٥) مفردات الراغب الأصفهاني : « مرد » ٤٦٦ .
(٦) أسباب النزول للنيسابوري ٢٩٧ .
(٧) تفسير الطبري ٨/١١ .

حول المدينة ، ولكن الله سبحانه وتعالى الذي لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء يعلمهم وسيعذبهم جل وعلا مرتين اثنتين لا مرة واحدة . مرة بالفضيحة ، والمعروف أن هذه السورة الكريمة تسمى الفاضحة ، فاضحة المنافقين[1] أو القتل في الدنيا[2] وعذاب القبر[3] ثم يُرَدّ أولئك المنافقون يوم القيامة إلى عذاب عظيم . وقد قال تعالى[4] : ﴿ إن المنافقين في الدّرك الأسفل من النّار ولن تجد لهم نصيراً ﴾ . والمعنى أنّ الله تعالى سيعذّبهم مرّتين اثنتين لا مرّة واحدة . بالفضيحة وعذاب القبر أو بالقتل وعذاب القبر .

وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُوا۟ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا۟ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠٢﴾

وآخرون اعترفوا بذنوبهم : يقول تعالى ذكره : ومن أهل المدينة منافقون مردوا على النفاق ومنهم آخرون اعترفوا بذنوبهم . يقول : أقرّوا بذنوبهم[5] .

خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً : يعني جل ثناؤه بالعمل الصالح الذي خلطوه بالعمل السيىء اعترافهم بذنوبهم وتوبتهم منها . والآخر السيىء هو تخلفهم عن رسول الله ﷺ حين خرج غازياً وتركهم الجهاد مع المسلمين[6] .

عسى الله أن يتوب عليهم : يقول : لعل الله أن يتوب عليهم . وعسى من الله واجب . وإنما معناه سيتوب الله عليهم ولكنه في كلام العرب على ما وصفت[7] .

من البين أن الآية الكريمة معطوفة على الآية الكريمة السابقة وأن التقدير : ومن أهل المدينة منافقون مردوا على النفاق ومنهم آخرون اعترفوا بذنوبهم التي ارتكبوها خلطوا عملاً صالحاً بالتوبة من كبير الذنب الذي ارتكبوه وآخر سيئاً هو ذلك الذنب الكبير الذي ارتكبوه بتخلفهم عن الجهاد مع الرسول ﷺ والمؤمنين في غزوة تبوك . إن أولئك التائبين الصادقين في توبتهم سوف يتوب الله تعالى عليهم وسوف يشملهم فضل الله تعالى عليهم ورحمته جل وعلا بهم بقبول توبتهم ومغفرة ذنوبهم . إن الله سبحانه وتعالى هو الغفور لذنوب عباده التائبين الرحيم بهم إذ أرشدهم إلى باب التوبة المفتوح على مصراعيه وهو المتفضل بقبول التوبة عن عباده والعفو عن السيئات .

---

(١) تفسير ابن كثير ٣٦٧/٢ وتفسير الطبري ١١٨/١٠ .
(٢) الجلالين .
(٣) تفسير الطبري ٩/١١ والجلالين .
(٤) سورة النساء ١٤٥ .
(٥) تفسير الطبري ١٠/١١ .
(٦) تفسير الطبري ١٠/١١ .
(٧) تفسير الطبري ١٠/١١ .

وقد اختلف العلماء في عدد أولئك الذين اعترفوا بذنوبهم ، فهم ستة أو سبعة أو عشرة منهم أبو لُبابة[1] قال ابن عباس في رواية الوالبي : نزلت في قوم كانوا قد تخلّفوا عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك ثم ندموا على ذلك وقالوا : نكون في الكِنّ والظلال مع النساء ، ورسول الله ﷺ وأصحابه في الجهاد ! والله لنوثقن أنفسنا بالسواري فلا نطلقها حتى يكون الرسول هو الذي يطلقنا ويعذرنا . وأوثقوا أنفسهم بسواري المسجد . فلما رجع رسول الله ﷺ مرّ بهم فرآهم فقال : من هؤلاء ؟ قالوا : هؤلاء تخلفوا عنك ، فعاهدوا الله ألا يطلقوا أنفسهم حتى تكون أنت الذي تطلقهم وترضى عنهم . فقال النبي ﷺ : وأنا أقسم بالله لا أطلقهم حتى أومر بإطلاقهم ، ولا أعذرهم حتى يكون الله هو يعذرهم ؛ وقد تخلفوا عني ورغبوا بأنفسهم عن الغزو مع المسلمين . فأنزل الله تعالى هذه الآية . فلما نزلت أرسل إليهم النبي صلوات الله عليه فأطلقهم وعذرهم ، فلما أطلقهم قالوا : يا رسول الله ، هذه أموالنا التي خلّفتْنا عنك ، فتصدق بها عنّا وطهرنا واستغفر لنا . فقال : ما أمرت أن آخذ من أموالكم شيئاً ، فأنزل الله عز وجل : خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها .. الآية ..

وقال ابن عباس : كانوا عشرة رهط[2] .

خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ ۖ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٣﴾

سبب النزول :

قال الزهري : كان أبو لُبابة ممن تخلف عن النبي ﷺ في غزوة تبوك فربط نفسه بسارية فقال : والله لا أحل نفسي منها ولا أذوق طعاماً ولا شراباً حتى أموت أو يتوب الله علي . فمكث سبعة أيام لا يذوق طعاماً ولا شراباً حتى خرّ مغشياً عليه . قال : ثمّ تاب الله عليه . ثم قيل له قد تيب عليك يا أبا لبابة . فقال : والله لا أحل نفسي حتى يكون رسول الله ﷺ هو يحلّني . قال : فجاء النبي ﷺ فحلّه بيده ثم قال أبو لبابة : يا رسول الله ، إن من توبتي أن أهجر دار قومي التي أصبت فيها الذنب وأن أنخلع من مالي كله صدقة إلى الله وإلى رسوله . قال : يجزيك يا أبا لبابة الثلث[3] .

تطهرهم : من دنس ذنوبهم[4] .

---

(١) انظر تفسير الطبري ١٠/١١ و ١١ .
(٢) أسباب النزول ٢٩٧ وانظر تفسير الطبري ١١/١١ و ١٢ .
(٣) تفسير الطبري ١٢/١١ .
(٤) تفسير الطبري ١٣/١١ .

وتزكيهم بها : وتنمّيهم وترفعهم عن خسيس منازل أهل النفاق بها إلى منازل أهل الإخلاص[1] .

وصلّ عليهم : أي ادع لهم واستغفر لهم كما رواه مسلم في صحيحه عن عبد الله بن أبي أوفى قال : كان النبي ﷺ إذا أتى بصدقة قوم صلى عليهم . فأتاه أبي بصدقته فقال : اللهم صل على آل أبي أوفى . وفي الحديث الآخر أن امرأة قالت : يا رسول الله صلّ عليَّ وعلى زوجي فقال : صلى الله عليك وعلى زوجك[2] .

إن صلاتك سكن لهم : عن ابن عباس رحمة لهم[3] وقيل طمأنينة بقبول توبتهم[4] .

مع أن الآية الكريمة نزلت في مناسبة خاصة فليس ثمة ما يمنع أن ينظر إليها من زاوية عامة اعتماداً على القاعدة التي تقول : إن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب .

إن الآية الكريمة تأمر المصطفى ﷺ بأن يأخذ من أموال صادقي التوبة عن التخلف في غزوة تبوك ومن أموال غيرهم من الصحابة رضوان الله تعالى عليهم صدقة وراء الزكاة المفروضة تطهرهم من الذنوب وتنقيهم من الأدران وتزكيهم بها أيها الرسول الكريم من الخطايا والآثام واستغفر الله تعالى لهم وادع لهم بالبركة وبالخير ، إن دعاءك أيها الرسول الكريم واستغفارك لهم رحمة بهم وطمأنينة لهم . إن الله سبحانه وتعالى هو السميع لكل دعاء وقول ، العليم بكل نية وعمل ، المجازي على كل ذلك ، المثيب على الحسنات بفضله ، وعلى السيئات بعدله ، لا رب غيره ولا معبود بحق سواه .

أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾

الاستفهام في الآية الكريمة بقصد التقرير والتهييج إلى التوبة وإلى الصدقة . ألم يعلم أولئك المتخلفون عن غزوة تبوك الصادقو التوبة أن الله سبحانه وتعالى هو وحده لا شريك له الذي يقبل التوبة عن عباده ، بأن يتفضل بقبولها منهم بعد تفضله جل وعلا بإرشادهم

---

(١) تفسير الطبري ١١/١٣ .

(٢) تفسير ابن كثير ٢/٣٨٦ وانظر تأويل مشكل القرآن لابن قتيبة ٣٥٥ .

(٣) تفسير الطبري ١١/١٤ وتفسير ابن كثير ٢/٣٨٦ والجلالين .

(٤) الجلالين .

إليها . أولم يعلم أولئك أن الله سبحانه وتعالى هو الذي يأخذ الصدقات ويقبلها . إن الله سبحانه وتعالى هو التواب الذي يقبل توبة العبد كل مرة يتوب العبد فيها بعد ذنب ، ويثوب إلى بارئه جل وعلا بعد إثم ، وإن الله سبحانه وتعالى هو الرحيم الذي يرشد عباده إلى ما يرفع الإثم والحرج عنهم ، ويقبل توبتهم رأفةً ورحمةً بهم .

وإذا كان الحديث يتجه أساساً إلى التائبين إلى الله تعالى عن التخلف في غزوة تبوك فإن العبرة كما هو معلوم بعموم اللفظ لا بخصوص السبب .

روى الترمذي عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : إن الله يقبل الصدقة ويأخذها بيمينه فيربيها لأحدكم كما يربي أحدكم مُهْره حتى إن التمرة لتكون مثل أُحُد[1] .

وَقُلِ ٱعْمَلُوا۟ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۖ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٠٥﴾

تأمر الآية الكريمة المصطفى ﷺ أن يقول لأولئك المتخلفين عن تبوك أو أن يقول لكل الناس : اعملوا ما شئتم فسيرى الله سبحانه وتعالى عملكم ويراه رسوله ﷺ ويراه المؤمنون . وستردون يوم القيامة إلى الله تعالى عالم الغيب والشهادة ، السر والعلانية ، الذي يعلم حقيقة نواياكم ، فينبئكم بما كنتم تعملون ، ويذكركم بحقيقة نواياكم ، ويجازيكم عليها وعلى أعمالكم .

قال مجاهد : هذا وعيد يعني من الله تعالى للمخالفين أوامراه بأن أعمالهم ستعرض عليه تبارك وتعالى وعلى الرسول ﷺ وعلى المؤمنين . وهذا كائن لا محالة يوم القيامة كما قال تعالى[2] : ﴿ يومئذٍ تعرضون لا تخفى منكم خافية ﴾ وقال تعالى[3] : ﴿ يوم تُبْلى السرائر ﴾ وقال[4] : ﴿ وحُصِّل ما في الصدور ﴾[5] .

---

(١) تفسير ابن كثير ٢/٣٨٦ .
(٢) سورة الحاقة ١٨ .
(٣) سورة الطارق ٩ .
(٤) سورة العاديات ١٠ .
(٥) تفسير ابن كثير ٢/٣٨٦ .

وَءَاخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ ٱللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٠٦﴾

وآخرون : يقول تعالى ذكره : ومِنْ هؤلاء المتخلفين عنكم حين شخصتم لعدوكم أيها المؤمنون آخرون . ورفع قوله : آخرون ، عطفاً على قوله[1] : وآخرون اعترفوا بذنوبهم خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً[2] .

مُرْجون : يعني مُرْجئون لأمر الله وقضائه . يقال منه : أرجأته أرجئه إرجاءً وهو مرجأ . بالهمز وترك الهمز . وهما نعتان معناهما واحد . وقد قرأت القراء بهما جميعاً[3] ومُرْجون ومرجئون بمعنى : مؤخرون عن التوبة[4] قال ابن عباس ومجاهد وعكرمة والضحاك وغير واحد : هم الثلاثة الذين خُلّفوا أي عن التوبة . وهم : مُرارة بن الربيع ، وكعب بن مالك ، وهلال بن أمية ، قعدوا عن غزوة تبوك في جملة من قعد كسلاً وميلاً إلى الدعة والحفظ وطيب الثمار والظلال ، لا شكًّا ونفاقاً . فكانت منهم طائفة ربطوا أنفسهم بالسواري كما فعل أبو لبابة وأصحابه ، وطائفة لم يفعلوا ذلك ، وهم هؤلاء الثلاثة المذكورون . فنزلت توبة أولئك قبل هؤلاء ، وأرجيء هؤلاء عن التوبة حتى نزلت الآية الآتية[5] وهي قوله : .. وعلى الثلاثة الذين خُلِّفوا حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت .. الآية[6] .

تقول الآية الكريمة : ومن هؤلاء المتخلفين عنكم أيها المؤمنون في غزوة تبوك آخرون مؤخَّرون عن التوبة لأمر الله تعالى . فإن شاء جل وعلا عذبهم بعدله ، وإن شاء تاب عليهم بفضله ، والله سبحانه وتعالى عليم ، لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء ، ولا يخفى عليه ما توسوس به النفس وما يضمره الصدر . حكيم في صنعه جل وعلا حينما يعذب من يشاء ويغفر لمن يشاء . لا يُسأل سبحانه عما يفعل وهم يُسْألون .

---

(١) الآية ١٠٢ .
(٢) تفسير الطبري ١١/١٦ .
(٣) تفسير الطبري ١١/١٦ .
(٤) انظر الجلالين .
(٥) الآية ١١٨ .
(٦) تفسير ابن كثير ٢/٣٨٧ وانظر أسباب النزول ٢٩٨ .

« المسجد الذي أُسِّس على التّقوى
من أوّل يوم أحقّ بالقيام
فيه من مسجد الضِّرار »
الآيات (١٠٧ ــ ١١٠)

وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًۢا بَيْنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ مِن قَبْلُ ۚ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّا ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٠٧﴾

والذين اتخذوا مسجداً : ومنهم الذين اتخذوا مسجداً . وهم اثنا عشر من المنافقين(١) .

ضراراً : مضارّة لأهل مسجد قباء(٢) .

وكفراً : وكفراً بالله لمحادّتهم بذلك رسول الله ﷺ(٣) .

وتفريقاً بين المؤمنين : الذين يصلّون بقباء بصلاة بعضهم في مسجدهم(٤) .

قال المفسرون : إن بني عمرو بن عوف اتخذوا مسجد قباء ، وبعثوا إلى رسول الله ﷺ أن يأتيهم فأتاهم فصلى فيه . فحسدهم إخوتهم بنو غُنْم بن عوف ، وقالوا : نبني مسجداً ونرسل إلى رسول الله ﷺ ليصلي فيه كما صلى في مسجد إخواننا ، ولِيَصِلَ فيه أبو عامر الراهب إذا قدم من الشام(٥) محارباً لرسول الله ﷺ . وكان النبي ﷺ قد سمَّاه : أبا عامر الفاسق(٦) .

وإرصاداً لمن حارب الله ورسوله من قبل : وترقّباً(٧) وإعداداً للمسجد لأبي عامر الفاسق الكافر الذي خالف الله ورسوله وكفر بهما وقاتل رسول الله ﷺ من قبل بنائهم ذلك المسجد وذلك أن أبا عامر هو الذي أمرهم ببناء المسجد ليصلي فيه فيما يزعم إذا رجع إليهم من عند هرقل وقيصر الروم بالجيوش لقتال النبي ﷺ(٨) فظاهِرُ بناء المسجد للصلاة فيه وباطِنُه لينزل فيه أبو عامر الفاسق ويتّخذه مقرًّا له ومنطلقاً لقتال النّبيّ ﷺ .

---

(١) الجلالين وتفسير الطبري ١٧/١١ وتفسير ابن كثير ٢٨٨/٢ وأسباب النزول ٢٩٩ .

(٢) الجلالين وانظر تفسير ابن كثير ٢٨٨/٢ وتفسير الطبري ١٨/١١ .

(٣) تفسير الطبري ١٨/١١ .

(٤) الجلالين .

(٥) أسباب النزول ٢٩٨ .

(٦) أسباب النزول ٢٩٩ .

(٧) الجلالين .

(٨) انظر تفسير الطبري ١٨/١١ والجلالين وأسباب النزول ٢٩٩ وتفسير ابن كثير ٣٨٨/٢ .

وليحلفنّ إن أردنا إلا الحُسْنى : وليحلفنّ بالله العظيم ما أردنا ببنائه إلا الفعلة الحُسْنى[1] الحسنة[2] .

سبب النزول :

يتلخص سبب النزول في أن بني عمرو بن عوف لما اتخذوا مسجد قباء ، أوّل مسجد أسس على التقوى حسدهم إخوتهم بنو غُنْم بن عوف وبنوا مسجد الضِّرار[3] بتوجيه من أبي عامر الذي كان في الجاهلية يلقب بالراهب فقد تنصر ولبس المسوح[4] وقد حسد النبي ﷺ ولم يؤمن وحزّب الأحزاب ضد النبي ﷺ في أُحد[5] ولقد لقبه المصطفى ﷺ بالفاسق ، وأصر على كفره ، ولحق بقيصر الروم كي يأتي بجيش يقاتل به النبي ﷺ . وكتب الفاسق إلى بعض المنافقين يعدهم ويمنّيهم بالجيش الذي سيقدم به فيقاتل محمداً ﷺ ويغلبه ويرده عما هو فيه . وأمرهم ببناء مسجد الضّرار للصلاة فيه ظاهراً و لإيواء الفقير والضعيف من أذى المطر والحرّ والقُرّ ، أما في الباطن وفي الحقيقة فليكون المسجد مرصداً له إذا قدم عليهم بعد ذلك بأن يتخذ منه الفاسق منطلقاً لقتال النّبي ﷺ[6] ومكاناً يلتقي فيه بالمنافقين . فشرع المنافقون في بنائه وكانوا اثني عشر منافقاً ، وأخبروا المصطفى ﷺ ببناء المسجد كي يصلوا فيه حينما يحول الوادي بينهم وبين الصلاة مع إخوانهم في مسجد قباء فإذا ذهب السّيل صلّينا معهم[7] وطلبوا منه عليه الصلاة والسلام أن يأتي فيصلي في مسجدهم ليحتجّوا بصلاته فيه على تقريره وإثباته . وكان عليه الصلاة والسلام يستعدّ للسفر إلى تبوك فقال : إنّا على سفر ولكن إذا رجعنا إن شاء الله . ولما عاد النبي ﷺ من تبوك ونزل بذي أوان[8] بلد بينه وبين المدينة ساعة من نهار[9] أتاه خبر المسجد[10] ونزل عليه القرآن وأخبره الله عز وجل خبر مسجد الضّرار وما همّوا به[11] فدعا رسول الله ﷺ مالك بن الدُّخْشُم أخا بني سالم بن عوف ومعن بن عدي أو أخاه عامر بن عدي أخا بلعجلان فقال : انطلقا إلى

---

(١) تفسير الطبري ١١/١٨ والجلالين .
(٢) تفسير الطبري ١١/١٨ .
(٣) انظر أسباب النزول ٢٩٨ .
(٤) انظر أسباب النزول ٢٩٨ .
(٥) تفسير ابن كثير ٢/٣٨٧ وانظر تفسير الطبري ١١/١٨
(٦) انظر هنا مثلاً تفسير ابن كثير ٢/٣٨٨ .
(٧) تفسير الطبري ١١/٢٠ .
(٨) تفسير الطبري ١١/٢٠ .
(٩) تفسير ابن كثير ٢/٣٨٨ ومعجم البلدان . وأوان بفتح الهمزة . ياقوت .
(١٠) تفسير ابن كثير ٢/٣٨٨ .
(١١) أسباب النزول ٢٩٩ .

هذا المسجد الظالم أهله فاهدماه وحرّقاه فخرجا سريعين حتى أتيا بني سالم بن عوف ، وهم رهط مالك بن الدُّخْشُم . فقال مالك لمعن أَنْظِرْني حتى أخرج إليك بنارٍ من أهلي فدخل أهله فأخذ سعفاً من النخل فأشعل فيه ناراً ثم خرجا يشتدان حتى دخلا المسجد وفيه أهله فحرّقاه وهدماه وتفرقوا عنه[1] وأمر النبي ﷺ أن يتّخذ ذلك كُناسة تُلْقَى فيها الجِيَف والنتن والقُمامة[2] .

إن الآية الكريمة تقول : ومنهم الذين اتخذوا مسجداً ضراراً لمسجد قباء[3] ومضارة لأهل مسجد قباء[4] ولمسجد رسول الله ﷺ[5] وكفراً بالله تعالى وبرسوله ﷺ وتفريقاً بين المؤمنين بأن يصلي بعضهم في مسجد قباء وبعضهم في مسجد الضرار ، وترقّباً واستعداداً[6] لمجيء من حارب الله تعالى ورسوله ﷺ من قبل بنائهم ذلك المسجد . فقد أراد أبو عامر الفاسق أن يتظاهر بالصلاة في المسجد وفي الحقيقة إنما أراد الكيد للإسلام ولنبي الإسلام ﷺ . والعجيب في أمر هؤلاء المنافقين أنهم يحلفون بالله العظيم أنهم ما أرادوا إلا الفعلة الحسنى والله سبحانه وتعالى يشهد إنهم لكاذبون ﴿ وكفى بالله شهيداً ﴾[7] .

لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا ۚ لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ ۚ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا ۚ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ ﴿١٠٨﴾

لا تقم فيه أبداً : لا تصلّ فيه أبداً[8] .

لمسجد أُسِّس على التقوى : لمسجد بنيت قواعده[9] .

---

(١) تفسير ابن كثير ٣٨٨/٢ .
(٢) أسباب النزول ٣٠٠ والكُناسة موضع الزّبالة التي تُكْنَس .
(٣) تفسير ابن كثير ٣٨٨/٢ .
(٤) الجلالين .
(٥) تفسير الطبري ١٨/١١ .
(٦) انظر مفردات الراغب الأصفهاني : « رصد » ١٩٦ .
(٧) سورة النساء ١٦٦ .
(٨) الجلالين وتفسير ابن كثير ٣٨٩/٢ .
(٩) الجلالين .

من أول يوم : يوم حللت بدار الهجرة . وهو مسجد قباء كما في البخاري[1] وقيل هو مسجد رسول الله ﷺ الذي فيه منبره وقبره اليوم[2] ويقول ابن كثير[3] : « السياق إنما هو من معرض مسجد قباء » ويقول[4] : « وقد صرّح جماعة من السلف بأنه مسجد قباء ، رواه علي بن أبي طلحة عن ابن عباس ... وقد ورد في الحديث الصحيح أن مسجد رسول الله ﷺ الذي في جوف المدينة هو المسجد الذي أُسس على التقوى . وهذا صحيح . ولا منافاة بين الآية وبين هذا لأنه إذا كان مسجد قباء قد أُسس على التقوى من أول يوم ، فمسجد رسول الله ﷺ بطريق الأَوْلَى والأَحْرى » .

أحق أن تقوم فيه : أَوْلى أن تقوم فيه مصلياً[5] .

فيه رجال يحبون أن يتطهروا : عن ابن عباس قال : لما نزلت هذه الآية : فيه رجال يحبون أن يتطهروا ، بعث رسول الله ﷺ إلى عويم بن ساعدة فقال : ما هذا الطهور الذي أثنى الله عليكم ؟ فقال : يا رسول الله ما خرج منا رجل ولا امرأة من الغائط إلا غسل فرجه أو قال مقعدته . فقال النبي ﷺ : هو هذا[6] وروى الإمام أحمد ... عن عويم بن ساعدة الأنصاري أنه حدّث أن النبي ﷺ أتاهم في مسجد قباء فقال : إن الله تعالى قد أحسن عليكم الثناء في الطّهور في قصة مسجدكم ، فما هذا الطهور الذي تطهّرون به ؟ فقالوا : والله يا رسول الله ما نعلم شيئاً إلا أنه كان لنا جيران من اليهود فكانوا يغسلون أدبارهم من الغائط فغسلنا كما غسلوا . ورواه ابن خزيمة في صحيحه[7] .

والله يحب المطهرين : إنما هو المتطهرين ولكن أدغمت التاء في الطاء فجعلت طاءً مشددة لقرب مخرج إحداهما من الأخرى[8] .

سبب النزول :

روي أن المنافقين عَرَضوا مسجد الضرار يبنونه ليضاهئوا به مسجد قباء ، وهو قريب منه ، لأبي عامر الراهب ، يَرْصُدونه إذا قدم ليكون إمامَهُم فيه . فلما فرغوا من بنائه أتوا رسول الله ﷺ فقالوا : يا رسول الله : إنّا قد بنينا مسجداً فصلّ فيه حتى نتخذه مصلّى . فأخذ ثوبه ليقوم معهم ، فنزلت هذه الآية : لا تقم فيه أبداً[9] .

---

(١) الجلالين وانظر تفسير ابن كثير ٢/٣٨٩ .
(٢) تفسير الطبري ١١/٢٠ .
(٣) تفسير ابن كثير ٢/٣٨٩ .
(٤) تفسير ابن كثير ٢/٣٨٩ .
(٥) تفسير الطبري ١١/٢٠ .
(٦) تفسير ابن كثير ٢/٣٨٩ .
(٧) تفسير ابن كثير ٢/٣٨٩ وانظر تفسير الطبري ١١/٢٢ ، ٢٣ .
(٨) تفسير الطبري ١١/٢٤ .
(٩) أسباب النزول ٣٠٠ .

تنهي الآية الكريمة المصطفى ﷺ عن الصلاة في مسجد الضرار مطلقاً ، ولهذا أمر المصطفى ﷺ على الفور بهدمه . وإن النهي في القول : « لا تقم فيه أبداً » دليل على وجوب سلامة النية وصحة القصد بشأن الأعمال التي ظاهرها الصلاح وموافقتها لما أمر به الشارع الحكيم . إن كلًّا من شرط صلاح النية وشرط صحة العمل ضروري في الإسلام بين يدي تفضّل الله تعالى بقبول تلك الأعمال الصالحة بمقياس الإسلام .

وتقرر الآية الكريمة بعد ذلك في خطابها للمصطفى ﷺ ابتداء أن المسجد الذي أسس على التقوى من أول يوم وصل فيه المصطفى ﷺ قباء في المدينة المنورة ورُفِعَت قواعده على طاعة الله تعالى وطاعة رسوله ﷺ أحقّ من مسجد الضّرار بأن يقوم فيه المصطفى ﷺ ويصلّي فيه لله رب العالمين . وفي الآية الكريمة دليل على استحباب الصلاة في المساجد القديمة المؤسسة من أول بنائها على عبادة الله وحده لا شريك له ، وعلى استحباب الصلاة مع الجماعة الصالحين والعباد العاملين المحافظين على إسباغ الوضوء والتّنزّه عن ملابسة القاذورات[1] .

وربما كان من الأدلة على أن المراد بالمسجد الذي أسس على التقوى هو مسجد قباء أن مسجد قباء لا يفصل بينه وبين مسجد الضرار سوى واد واحد أو مجرى سيل واحد ، وأن الآية الكريمة بعد ذلك تثني على أهل قباء الذين يعنيهم القول : « فيه رجال يحبون أن يتطهروا . والله يحب المطهرين » .

والمعروف أن المصطفى ﷺ بعد أن هاجر من مكة وصل قباء في المدينة المنورة يوم الاثنين الموافق للثاني عشر من شهر ربيع الأول[2] وأنه عليه الصلاة والسلام مكث هنالك يوم الاثنين ويوم الثلاثاء ويوم الأربعاء ويوم الخميس وأنه ترك قباء متجهاً إلى المدينة المنورة يوم الجمعة ، وفي الطريق أدركته صلاة الجمعة فصلاها في وادي رانوناء[3] في المكان الذي فيه مسجد الجمعة اليوم[4] ثم واصل عليه الصلاة والسلام السير حتى بركت ناقته المأمورة في مربد اليتيمين فاشتراه منهما النبي ﷺ بعشرة دنانير ذهباً أداها من مال أبي بكر[5] واتخذه عليه الصلاة والسلام مسجداً .

إن الآية الكريمة في القول : « فيه رجال يحبون أن يتطهّروا » تثني على أهل قباء ، رجالاً

---

(١) تفسير ابن كثير ٢/٣٩٠ .

(٢) السيرة النبوية لابن هشام ١/٤٩٢ حلبي .

(٣) رانُوناء : بعد الألف نون ، وواو ساكنة ونون أخرى ، وهو ممدود . ياقوت .

(٤) انظر السيرة النبوية لابن هشام ١/٤٩٤ حلبي .

(٥) السيرة النبوية دروس وعبر الدكتور مصطفى السباعي ٦٧ .

ونساءً ، الذين كانوا يستنجون بالماء[1] ويغسلون عنهم أثر الغائط والبول[2] ويتبعون الحجارة بالماء[3] .

وفي التذييل : « والله يحب المطّهّرين » تقرر الآية الكريمة أن الله سبحانه وتعالى يحب المطهرين بمعنى المتطهرين ، الذين يحرصون على طهارة الظاهر على غرار صنيع أهل قباء ، وعلى طهارة الباطن ، سعياً وراء الوصول إلى مرتبة التقوى الوجه الآخر للإحسان كما بينه الحديث النبوي الشريف بأن تعبد الله كأنك تراه فإنك لم تكن تراه فإنه يراك[4] .

جاء في الحديث الصحيح أن رسول الله ﷺ قال : صلاة في مسجد قباء كعمرة . وفي الصحيح أن رسول الله ﷺ كان يزور مسجد قباء راكباً وماشياً . وفي الحديث أن رسول الله ﷺ لما بناه وأسسه أول قدومه ونزوله على بني عمرو بن عوف كان جبريل هو الذي عين له جهة القبلة . فالله أعلم[5] .

أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ
خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ
فِي نَارِ جَهَنَّمَ ۗ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٠٩﴾

الشّفا : الحرف[6] والطّرف[7] .

والجرف : بضم الراء وسكونها ، الجانب[8] والحفيرة[9] لم يُبْنَ لها[10] .

هار : مشرف على السقوط[11] وإنما هو هائر . ولكنه قلب ، فأخّرت ياؤها فقيل : هار ، كما قيل : شاك السلاح وشائك . وأصله من هار يهور فهو هائر . وقيل : هو من هار يهار إذا انهدم[12] .

من البيّن أن الاستفهام للتقرير[13] وبذلك تقرر الآية الكريمة أن من أسس بنيانه على

---

(١) تفسير الطبري ١١/٢٣ .
(٢) تفسير الطبري ١١/٢٣ .
(٣) الجلالين .
(٤) صحيح البخاري ١/٢٠ .
(٥) تفسير ابن كثير ٢/٣٨٩ .
(٦) تفسير الطبري ١١/٢٤ .
(٧) تفسير ابن كثير ٢/٣٩١ والجلالين .
(٨) الجلالين .
(٩) تفسير ابن كثير ٢/٣٩١ .
(١٠) انظر تفسير الطبري ١١/٢٤ .
(١١) الجلالين .
(١٢) تفسير الطبري ١١/٢٤ .
(١٣) الجلالين .

تقوى من الله تعالى ، فتحقق في هذا البنيان صحة النية وصحة العمل ، وعلى رضوان من الله تعالى ، وذلك دليل على تفضل الله تعالى بتقبل ذلك العمل لتحقق شرط صلاح النية وشرط صلاح العمل ، تقرر الآية الكريمة أن ذلك خير ممن أسس بنيانه على حافة هاوية فانهارت به ، ليس في مكان سحيق فحسب ، وما أصعب ذلك ، بل فانهارت به في نار جهنم وبئس المصير وبئس القرار والعياذ بالله .

وإذا كانت الآية الكريمة تتحدث عن البنيان وعن قواعده ، وعن القواعد التي أُسّست على تقوى من الله تعالى ورضوان ، وعن القواعد التي أسست على حافة حفيرة ، وعلى شفا جرف هار لا يلبث أن ينهار بما عليه من بنيان رفع على قواعد زائفة ، فإن النص على تقوى الله تعالى ورضوانه وعلى أن انهيار شفا الجرف المنهار أفضى بالبناء إلى نار جهنم يجعلنا نفهم أن الحديث هنا إنما هو عن المعنوي في ثوب المحسوس . وما أعظم هذا الإعجاز القرآني الذي يقرّب المعنويات للفهم بإظهارها في شكل المحسوسات التي يدركها بسطاء الناس فكيف بمفكريهم . وهل هنالك من شخص لديه أدنى مُسْكة من عقل يجهل بأن إقامة أبسط بناء على حافة حفيرة خطأ كبير وخطر عظيم لأن مصير ذلك البناء الثقيل بطبعه أن يعجل بانهيار حافة الحفيرة به . ويلاحظ أن الآية الكريمة تذكر البنيان مباشرة ولا تذكر القواعد ، وكأن هذا البناء لم يكتف بالتربة الهشة ، والحافة الخطرة ، إنما أضاف إلى ذلك الاستغناء عن القواعد أساساً فكانت النتيجة الانهيار المؤكد سلفاً . إن الانهيار لو كان إلى أعماق الوادي السحيق لكان فاجعة وكارثة ، فكيف إذا أضيف إلى هذا الانهيار انهيار معنوي أبعد غوراً وأشد هولاً ، ألا وهو الانهيار في نار جهنم وفي أعماق السعير والعياذ بالله . ما أبلغ التذييل بعد هذه المعاني العميقة والمرامي القصية وذلك في القول : « والله لا يهدي القوم الظالمين » الذين ظلموا أنفسهم وظلموا غيرهم بوضعهم العبادة في غير مكانها الصحيح . ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم .

لَا يَزَالُ بُنْيَٰنُهُمُ ٱلَّذِى بَنَوْا۟ رِيبَةً فِى قُلُوبِهِمْ إِلَّآ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١١٠﴾

ريبةً : شكًّا ونفاقاً[1] .

إلا أن تقطّع قلوبهم : إلا أن تتصدع قلوبهم[2] بموتهم . قاله ابن عباس ومجاهد وقتادة

(١) تفسير الطبري ٢٥/١١ وتفسير ابن كثير ٣٩١/٢ . (٢) تفسير الطبري ٢٥/١١ .

وزيد بن أسلم والسدّي وحبيب بن أبي ثابت والضحّاك وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم وغير واحد من علماء السلف[1] .

بما أن سورة التوبة من آخر ما نزل من القرآن الكريم على المصطفى ﷺ فإن المنافقين الذين تتحدث عنهم الآية الكريمة ، وهم أهل مسجد الضرار ، لم يستفيدوا شيئاً من وجود المصطفى ﷺ بين ظهرانَيْهِمْ . فهل يُنْتَظَر من هؤلاء أن يستفيدوا في المستقبل من شيء بعد موت المصطفى ﷺ وانقطاع الوحي ؟ المنتظر أنهم لن يستفيدوا شيئاً حتى يموتوا وتتصدع قلوبهم وتتقطع أفئدتهم . إن هذه هي بعض المعاني التي تريد الآية الكريمة تبيينها .

إن الآية الكريمة تقرر أن أولئك المنافقين الذين بنوا مسجد الضرار لا يزال بنيانهم الذي بنوا ، وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً ، شكّاً ونفاقاً في قلوبهم ، قد تمكن منها واستحوذ عليها وتغلغل في أعماقها كما تغلغل حب العجل في قلوب الذين عبدوه من بني إسرائيل . وإن ذلك النفاق وتلك الشكوك والريب لن تفارق قلوبهم حتى تفارق الحياة تلك القلوب ، وحتى يموت المنافقون أصحابها . ومن البين أننا بصدد مظهر من مظاهر إعجاز القرآن الكريم في مجال الإنباء بالغيب . إن الله سبحانه وتعالى هو العليم الذي يعلم السر وأخفى ، الحكيم في صنعه وتدبيره وقدره وفي كل شيء ، لا إله غيره ولا معبود بحقّ سواه .

---

(١) تفسير ابن كثير ٢/٣٩١ وتفسير الطبري ١١/٢٥ ، ٢٦ .

- « الجنّة جزاء المجاهدين في سبيل
الله تعالى وبعض صفات المؤمنين »
الآيات (١١١ ــ ١١٢)

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم
بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ
وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ
وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ فَٱسْتَبْشِرُوا۟
بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١١﴾

اشترى : ابتاع[1] .

تقرر الآية الكريمة أن الله سبحانه وتعالى اشترى من المؤمنين بالله تعالى ربّاً وبالإسلام ديناً أنفسهم وأموالهم . أما الثمن فإنه الجنة التي فيها ما لا عين رأت ولاأذن سمعت ولا خطر على قلب بشر . ويلاحظ أن الآية الكريمة تجمع بين الأنفس والأموال دليلاً على أهميّتهما ، فالمعروف أن المال عزيز على صاحبه وأحياناً تُدْفع النفس ثمناً للمال حماية له وحرصاً عليه . كما يلاحظ أن الآية الكريمة تقدم الأنفس على الأموال دليلاً على تقدم النفس على المال في النّفاسة . ومن الأدلة على أهمية المال من أجل الجهاد في سبيل الله تعالى أن السورة الكريمة رفعت الإثم ودفعت الحرج عن الحريصين على الجهاد من المؤمنين ولكن عدم وجود المال الذي يوصلهم إلى المعركة حال بينهم وبين تحقيق ما يتمنون من الجهاد في سبيل الله تعالى .

ومن الأدلة على تقدم النفس على المال في النّفاسة ، إضافة إلى تقدم النفس على المال في الآية الكريمة ، أنّ الحديث في الآية الكريمة بعد ذلك اقتصر على النفس المبذولة رخيصة في سبيل الله تعالى .

إن المؤمنين الصادقي الإيمان الذين اشترى الله سبحانه وتعالى أنفسهم وأموالهم يقاتلون في سبيل الله تعالى بأنفسهم ومن باب الأَوْلى والأَحْرى بأموالهم . وتقرر الآية الكريمة طبيعة العمل الذي يقوم به المجاهدون في سبيل الله تعالى في حق أعداء الله تعالى وطبيعة العمل الذي يقوم به خصومهم . إن المؤمنين يقتلون أعداء الله تعالى ، وإن أعداء الله تعالى يقتلونهم . ودليلاً على إيجابية المؤمنين وحرصهم على إحدى الحسنيين النصر أو الشهادة ينص السياق

---

(١) تفسير الطبري ٢٦/١١ .

أولاً على أن المؤمنين هم الذين يقتلون أعداء الله تعالى ابتداءً . ومن الطبيعي بعد ذلك أن يُستَشْهَد فريق من أولئك المجاهدين في سبيل الله تعالى .

وبعد أن قررت الآية الكريمة طبيعة العمل الذي يقوم به المجاهدون في سبيل الله تعالى نصت على أن الجنة التي يدخلها المجاهدون في سبيل الله تعالى ثمناً للأنفس والأموال التي بذلوها رخيصة في سبيل الله تعالى هي وعدٌ كتبه الله تعالى على نفسه جلّ وعلا حقاً ، في التوراة التي أوحاها الله تعالى إلى موسى عليه السّلام ، والإنجيل الذي أوحاه الله تعالى إلى عيسى عليه السلام ، والقرآن الكريم الذي أوحاه الله تعالى إلى محمد بن عبد الله ﷺ . ويلاحظ ترتيب الكتب السماوية بحسب ترتيب المرسلين الموحى إليهم بها زمناً . إنهم على التوالي موسى وعيسى ومحمد صلوات الله تعالى وسلامه عليهم أجمعين . ويؤكد الوفاء بالعهد في القول : « ومن أوفى بعهده من الله » والمعنى لا أحد أوفى بعهده من الله تعالى . إن واجب المؤمنين المجاهدين في سبيل الله تعالى أن تمتلىء نفوسهم بِشراً وحبوراً بسبب بذلهم أنفسهم وأموالهم رخيصة في سبيل الله تعالى ، وبيعهم الذي بايعوا الله سبحانه وتعالى به وهو الجنة ثمن الجهاد بالأنفس والأموال .

ويلاحظ أسلوب الالتفات في القول : « فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به » بعد أن كان السياق مستخدماً ضمير الغائبين . ومن البين أن ضمير المخاطب أقوى من ضمير الغائب وكأن المؤمنين امتثلوا أوامر الله تعالى وبادروا إلى الجهاد في سبيل الله تعالى ، وها هي ذي الآية الكريمة تخاطبهم وجهاً إلى وجه .

وفي التذييل : « وذلك هو الفوز العظيم » تقرر الآية الكريمة أن أخذ الجنة مقابل دفع الثمن وهو النفس والمال ، هو الفوز العظيم حقاً ، الذي لا فوز وراءه ، ولا نجاح أكبر منه .

والآية الكريمة التالية تبين صفات أولئك المؤمنين الذين اشترى الله سبحانه وتعالى منهم أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة التي وعدهم بها في كتبه الثلاثة الكبار ، التوراة والإنجيل والقرآن[1] .

---

(١) انظر هنا تفسير ابن كثير ٢/٣٦١ .

ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلْعَٰبِدُونَ ٱلْحَٰمِدُونَ ٱلسَّٰٓئِحُونَ
ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ ٱلْءَامِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ
وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱلْحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ
وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾

التائبون : الراجعون مما كرهه الله وسخطه إلى ما يحبه ويرضاه[١] .

العابدون : الذين ذلوا خشية لله وتواضعاً له فجدّوا في خدمته[٢] .

الحامدون : الذين يحمدون الله على كل ما امتحنهم به من خير وشر[٣] .

السائحون : الصائمون[٤] وقال سفيان الثوري عن عاصم عن ذر عن عبد الله بن مسعود قال : السائحون الصائمون . وكذا روي عن سعيد بن جبير والعوفي عن ابن عباس[٥] عن عبيد بن عمير قال : سئل النبي ﷺ عن السائحين فقال : هم الصائمون . وهذا مرسل جيد . وهذا أصح الأقوال وأشهرها . وجاء ما يدل على أن السياحة الجهاد[٦] والسائح الماء الدائم الجرْية في ساحة . والساحة : المكان الواسع ومنه ساحة الدار . وسلح فلان في الأرض مَرَّ مَرَّ السائح . قال[٧] : فسيحوا في الأرض أربعة أشهر . ورجل سائح في الأرض وسَيّاح . وقوله : السائحون ، أي الصائمون . وقال : سائحات أي صائمات . وقيل : السائحون هم الذي يتحرَّوْن ما اقتضاه قوله[٨] : أفلم يسيروا في الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها[٩] عن عائشة قالت : سياحة هذه الأمة الصيام[١٠] .

---

(١) تفسير الطبري ٢٧/١١ .
(٢) تفسير الطبري ٢٧/١١ .
(٣) تفسير الطبري ٢٨/١١ .
(٤) تفسير الطبري ٢٨/١١ وتفسير ابن كثير ٣٩٢/٢ والجلالين ومفردات الراغب الأصفهاني : « ساح » ٢٤٦ .
(٥) تفسير ابن كثير ٣٩٢/٢ .
(٦) تفسير ابن كثير ٣٩٢/٢ وانظر تفسير الطبري ٢٨/١١ .
(٧) سورة التوبة ٢ .
(٨) سورة الحج ٤٦ .
(٩) مفردات الراغب الأصفهاني : « ساح » ٢٤٦ .
(١٠) تفسير الطبري ٢٩/١١ وتفسير ابن كثير ٣٩٢/٢ .